التّوجيه الصّرفيّ و أثره الدّلاليّ للجذر اللّغويّ (ك-ل-م) في «التّحرير والتّنوير» لابن عاشور: دراسة في الصّيغ الاسميّة والفعليّة

أحمد عودة عوض القيسي - باحث دكتوراه جامعة السلطان زين العابدين ماليزيا: alqaisi_86@yahoo.com

الدكتور محمد فوزي بن عبد الحميد - جامعة السلطان زين العابدين ماليزيا

الدكتور السيد محمد سالم - جامعة المدينة العالمية ماليزيا.

تاريخ التقديم 2025/9/29، تاريخ القبول 2025/10/16 ، تاريخ النشر 2025/10/30

المستخلص: هدف هذا البحث إلى دراسة لفظ «الكلمة» في القرآن الكريم في عشر سور (من التوبة إلى الكهف) وذلك من خلال تفسير ابن عاشور ووفق نظرته التّفسيرية في التّحرير والتّنوير للكشف عن أثر التوجيه الصرفي في بناء الدلالة لهذه الكلمة وفق المواضع الّتي وردت فيها؛ فقد تتبّع الباحث مواضع اللّفظ وسياقاته التّفسيرية وحللها تحليلًا وصفيًّا، وتستثمَّر الدراسة صيغ الجذر (ك - ل - م) بالقدر اللازم لإبراز الفروق حين تقتضي السّياقات. وتخلص إلى خريطة ربط بين السمات الصرفية والمعنى عند ابن عاشور، مبيّنةً أن تغيّر الصيغة والسّياق يُحوّل «الكلمة» من المفهوم العامّ إلى مدلول خاصٍّ مرتبط بالسّياق.

الكلمات المفتاحية: دلالة الكلمة؛ التّحرير والتّنوير؛ الصرف والدلالة؛ الجذر (ك-ل-م)؛ الدلالة؛ السّياق.

Morphological Interpretation and Semantic Implications of the Linguistic Root (K-L-M) in Ibn Ashur's al-Tahrir wa al-Tanwir: A Study of Nominal and Verbal Forms.

Ahmad Odeh Awad Alqisi Dr. Mohd Fauzi Abdul Hamid

Dr. Elsayed Mohamed Salem

Universiti Sultan Zainal Abidin (UniSZA) Malaysia; Al-Madinah International University (MEDIU), Malaysia

Abstract: This study aims to examine the lexical item the word "K-L-M" in the Quran across ten surahs (al-Tawbah - al-Kahf) - within Ibn Ashur's interpretive perspective in al-Tahrir wa al-Tanwir - to uncover how morphological interpretation shapes its meaning in the contexts in which it appears. The occurrences and their exegetical contexts are traced and analyzed descriptively. The study also engages, as needed, with the morphological patterns of the root (K-L-M) to highlight distinctions required by the contexts. It culminates in a mapping that links morphological features to meaning in Ibn Ashur's framework, showing that shifts in form and context move "al-Kalima" from a general meaning to a specific, context-bound meaning.

Keywords: semantics of al-Kalima; al-Tahrir wa al-Tanwir; morphology and semantics; root

(K-L-M); semantics; context.

المقدّمة

تستند هذه الدراسةُ استقراءِ مفردةِ «الكلمة» في القرآن الكريم ضمن عشرِ سورٍ تمتدّ من التوبة إلى الكهف، في ضوء تفسير ابن عاشور في «التّحرير والتّنوير»، بوصفِها وحدةً دلالية تتشكّل باختلاف صِيَغِ الجذر (ك-ل-م) وتبدُّلِ السّياق. وتطرحُ جدل كيفية إسهام التوجهاتُ الصرفيةُ في نقل لفظ «الكلمة» من معنى عامّ إلى معانٍ خاصة يحدّدها سياقها الواردة فيه. وتمكن أهميّة البحث في جمعِه بين المعاني المعجميّة للكلمة والدلالة الصرفية وعلاقتها بالفهمِ التّفسيريّ وربطِ الظواهر باستعمالِها الحقيقيّ والمجازيّ. ويعتمدُ منهجًا وصفيًّا تحليليًّا يقوم على تتبّع المواضع، واستخراجِ القرائن، وموازنةِ أقوال المفسّرين، مع الاستئناسِ بالشواهد اللغوية الّتي تعضد الأقوال. ويُحدِّد نطاقَه بنصوصِ السور المختارة، ويبني إطارًا مفهوميًّا يزاوج بين ثنائيةِ الصيغة والسّياق ومعيارِ العموم والخصوص. وتُبرز المقاربةُ الفروقَ بين «كلمةِ الله»، و«كلمةِ الّذين كفروا»، و«الكلمةِ الطيبة»، و«كلماتِ ربّك»، وتبيّن أثرَ التحويل الصرفيّ في توجيه الدلالة. كما تُعدّ اساس للربط بين السمات الصرفية والمعنى عند ابن عاشور وتوضّح علاقة الاشتقاق والإضافة بالاستعمال، وتكشفُ أن تغيّرَ البنية الصرفية وتنوّعَ الملابسات عاملان حاسمان في تخصيصِ المعنى وتحديدِ مجاله التداولي. وبهذا تسعى الدراسةُ إلى سدِّ فجوةٍ في بحوث المصطلح القرآنيّ الّتي تناولت المعجمَ أو السّياق منفردين، وتقدّم قراءةً متماسكةً تُعين على فهم وظائف «الكلمة» في الخطاب القرآنيّ.

مسألة البحث

بعد قراءةٍ تحليليّة دقيقة لمواضع ورود لفظ «الكلمة» ومشتقّاته في المادة القرآنية محلّ الدراسة من تفسير «التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور، تبيّن أنّ هذا اللّفظ لا يلتزم دلالةً واحدة جامدة، بل تتبدّل معانيه بتبدّل الصيغ الصرفيّة والسياقات التركيبية والدلالية التي يَرِد فيها. فقد لاحظ الباحث أنّ ابن عاشور يتناول الألفاظ المشتقّة من الجذر (ك-ل-م) ضمن منظومة متكاملة تجمع بين التحليل اللغويّ الصرفيّ والبيان التفسيريّ المقاصديّ، فيتجلّى عنده الارتباط الوثيق بين البناء الصرفيّ والوظيفة الدلالية في تفسير النصّ القرآنيّ.

غير أنّ أغلب الدراسات السابقة التي تناولت دلالة هذا الجذر في القرآن الكريم اقتصرت على المنحى المعجميّ أو الإحصائيّ الوصفيّ، دون أن تتعمّق في تحليل الصيغ الصرفيّة وأثرها في تشكيل المعنى القرآنيّ الخاص، وهو ما ترك فراغًا علميًّا يستدعي البحث فيه بمنهج يجمع بين التحليل الصرفيّ والدراسة الدلاليّة السياقية.

وعليه، تتمثّل مشكلة هذا البحث في الكشف عن أثر التوجيه الصرفيّ في تخصيص معنى «الكلمة» ومشتقّاتها، وبيان الضوابط والعلاقات البنيويّة التي تنظّم انتقال الدلالة من معناها العام إلى وظائفها الخاصة في السياق القرآنيّ، كما قرأها ابن عاشور في التحرير والتنوير. ويسعى البحث إلى بيان كيف يمكن للخصائص الصرفيّة –من صيغ اسمٍ وفعلٍ ومصدرٍ– أن تُسهم في إبراز الدلالات المتنوّعة التي أرادها المفسِّر، مما يُسهم في تعميق الفهم اللغويّ للقرآن الكريم، ويؤكد أهميّة التوجيه الصرفيّ بوصفه مدخلًا أساسًا في التفسير اللغويّ والدراسة الدلالية للنصّ القرآنيّ.

أسئلة البحث

1. أين يظهر التوجيه الصرفي للفظ «الكلمة» عند ابن عاشور؟
2. ما الّذي يغيّر معنى (الكلمة) من سياق إلى آخر مختلف؟
3. ما المعاني الرئيسة لِلّفظ (الكلمة) في هذه السور، وكيف ترتبط بصيغها المختلفة؟

فرضيات البحث

1. إذا تغيّرت صيغة «الكلمة» تغيّر معناها؛ والعلامات الصرفية مثل التعريف، التنكير، الإفراد، الجمع، والإضافة ترشد مباشرةً إلى المعنى المقصود في كل موضع.
2. يفسّر ابن عاشور اللفظ بجمع الصرف مع السّياق معًا؛ فالصيغة تضبط الإطار، والسّياق يحدّد المقصود النهائي للمعنى.
3. توجد معانٍ رئيسة متكرّرة للفظ «الكلمة» يمكن توقّعها من الصيغة والسّياق، ويمكن تمثيلها في تصنيف يربط كل صيغة بوظيفتها الدلالية.

التحليل الدلاليّ لـ (الكلمة) في السّور المستهدفة.

الكَلِمُ في اصطلاح النحاة اسمُ جمعٍ لـ«كلمة»، ويُطلَق على ما تركّب من ثلاث كلمات فأكثر ولو لم يستوفِ معنىً تامًّا يُحسَن السكوتُ عليه؛ ومن أمثلته نحو: «إنْ قامَ زيدٌ». وقد وردت مفردة الكَلِم في أربع آياتٍ قرآنية؛ ثلاثٌ منها اقترنت بوصفِ التحريف المنسوب إلى بعض بني إسرائيل، أي تغيير الألفاظ عن مواضعها بالتقديم والتأخير والزيادة والنقص، أو صرفها عن مراد الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾ النساء/ 46، و قوله: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾ المائدة/ 13، و{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: 41]. أمّا الموضع الرابع ففي سياقٍ عقديّ أخلاقيّ يبيّن ما يَقبَلُه اللهُ من العبد، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ فاطر/ 10؛ فقوله: «**الكَلِم الطيّب**» هو القولُ الحسنُ وأَجْلاه كلمةُ التوحيد وما يتصل بها من اعتقاداتٍ حقّة، ويكون

العملُ الصالح مُصَدِّقًا لهذه الأقوال ورافِعًا لها في ميزان القَبول. وبهذا يجتمعُ في الاستعمال القرآنيّ بُعدان: بُعدٌ لُغويّ يلحظ الألفاظ ومواضعها، وبُعدٌ قِيميّ يُثمن القول الحقّ والعمل المبرور.

يتصرّف الجذر (كلم) في أصله على معنيين متجاورين في المعاجم اللغوية وهما: الجرح والأثر، والقول والكلام. وقد لَفَتَ أهل الاشتقاق – لا سيّما الخليل- إلى صلةٍ دلاليّةٍ بينهما؛ فـ(الكلام) إظهارٌ وإبانةٌ تُحدِث أثرًا في السامع، كما تُحدِث (الكَلْم) أثرًا في الجسد. هذا التقابل والتداخل ورد صريحًا عند ابن فارس في مقاييس اللّغة.

عند ابن منظور: الكِلْمَة، بإسكان عينها لُغة تميم وَجَمْعُهَا كِلْم، وَلَمْ يَقُولُوا كِلَماً عَلَى اطِّرَادِ فِعَلٍ فِي جَمْعِ فِعْلة. (ابن منظور، 1414هـ، 524/12) وَأَمَّا ابْنُ جِنِّيٍّ فَقَالَ: بَنُو تَمِيمٍ يَقُولُونَ كِلْمَة وكِلَم كَكِسْرَة وكِسَر. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ**﴾ (ابن جنّي 1437هـ، 27/1)

في تهذيب اللّغة لفظ (الكلمة) آتٍ من الجذر اللغوي (كلّم) والكلّامُ: مَعْرُوف، والكلمة بإسكان اللام لغة تميم، والكلمة بكسر اللام لُغة أهل الحجاز، والجمع في لُغَة تَمِيم: الكلمُ، قَالَ رؤبة: (الأزهريّ، 2001 174/6)

لَمْ يَسْمَعِ الرَّكْبُ بِهَا رَجْعَ الكَلِمْ إِلَّا وَساوِيسَ هَيانِيمِ الهَنَم

وَالكلمة تقع على الْحَرْف الْوَاحِد من حُرُوف الهجاء، وَتَقَع على لَفْظَةٍ وَاحِدَة مُؤَلَّفةٍ من جماعةِ حروفٍ لَهَا مَعْنى، وَتَقَع على قصيدة بكمالها وخُطْبَة بأسْرها. (الأزهريّ، 2001 147/10)

يُقَال: قَالَ الشَّاعِر فِي كلمته أَي فِي قصيدته، والقرآنُ كلامُ الله، وكلّمُ الله، وكلمَاتُ الله، وكلمةُ اللَّهُ، وَهُوَ كَيْفَمَا تَصَرَّفَ، مَتْلُوًّا، ومَحْفُوظاً، ومَكْتُوباً: غير مَخْلُوق، ورجلٌ تِكلّامَةٌ يُحْسِنُ الكلام. (الأزهريّ، 2001 147/10)

والكلمة هي الرأي المتداول فالعرب تقول: "وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوّهم منهم، وآفة العدد اختلاف الكلمة؛ والتفضّل بالحسنة يقي السيئة، والمكافأة بالسيئة الدخول فيها". (الشّريف المرتضى، 1954 233/1)

وقد ورد لفظ (الكلمة) أو ما اتّحد معه في الأصل اللّغويّ في مادة البحث المستهدفة نحو تسع عشرة مرّة في سور مختلفة جاءت أغلبها هكذا (الكلمة) وتنوّعت معانيها على الرغم من أنها اتّحدت في المعنى المعجمي إذ إنَّه – المعنى المعجمي- يجمع الأصول ولا بد من وجود قاسم مشترك بين معاني الأصل الواحد وعلى ذلك أمثلة لا عدَّ لها أو حصر.

وردت المادة (كلم) في أول مادة البحث وكانت في الآية السادسة من سورة التّوبة فيقول الله عزل وجل: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كلامَ اللَّهِ ثمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعلمونَ**﴾ التّوبة/6.

فقد فسّر ابن عاشور كلام الله هنا بالقرآن، وأضيف (الكلام) إلى اسم الجلالة (الله)؛ لأنّه كلامٌ أوجده الله ليدلّ على مراده من النّاس وأبلغه إلى الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بواسطة الملك جبريل عليه السّلام، فلم يكن من تأليف مخلوقٍ، ولكنّ الله أوجده بقدرته بدون صنع أحدٍ، بخلاف الحديث القدسيّ (ابن عاشور، 1984 119/10).

ولمّا فسّر ابن عاشور قول الله تعالى: ﴿**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ التّوبة/40، قال الكلمة أَصْلُهَا اللّفظةُ مِنَ الْكلامِ، ثمَّ أُطْلِقَتْ عَلَى الْأَمْرِ وَالشّأن وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كلّ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ وَيُخْبِرُ الْمَرْءُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ مِنْ شَأْنِهِ، قَالَ تعالى: ﴿**وَجَعَلَها كلمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾ الزخرف/28، أَي أبقى التبرّي مِنَ الْأَصْنَامِ وَالتَّوْحِيدِ لِلَّهِ شَأْنَ عَقِبِهِ وَشِعَارَهُمْ. هكذا قال ابن عاشور في تفسير آية سورة الزخرف. ومثلها قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكلماتٍ**﴾ البقرة/124، أَيْ بِأَشْيَاءَ مِنَ التَّكَالِيفِ كَذَبْحِ وَلَدِهِ، وَاخْتِتَانِهِ، وَقَالَ الله تعالى لِمَريم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكلمَةٍ مِنْهُ**﴾ آل عمران/45 أَيْ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ، أَوْ بِوَلَدٍ عَجِيبٍ، وَقَالَ كذلك: ﴿**وَتَمَّتْ كلمَاتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا**﴾ الأنعام/115، أَيْ أَحْكَامُهُ وَوُعُودُهُ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ كلمَةِ الْمُسْلِمِينَ، أَيْ بَيْنَ أَمْرِهِمْ وَاتِّفَاقِهِمْ، وَجَمَعَ اللَّهُ كلمَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَكلمَةُ الّذينَ كَفَرُوا شَأْنُهُمْ وَكَيْدُهُمْ وَمَا دَبَّرُوهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَكْرِ.

وأصل الكلمة اللّفظ الواحد الّذي يتركّب منه ومن مثله الكلام المفيد، وتطلق الكلمة على الكلام إذا كان كلامًا جامعًا موجزًا كما في قول الله تعالى: ﴿**كلّا إِنَّهَا كلمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا**﴾ المؤمنون/8 (ابن عاشور، 1984 268/10).

أمّا كلمة الكفر فهي جنسٌ لكلّ كلامٍ فيه تكذيب للنّبي صلّى الله عليه وسلّم، كما أطلقت كلمة الإسلام على شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدا رسول الله. فالكلمات الصّادرة عنهم على اختلافها، ما هي إلّا أفرادٌ من هذا الجنس كما دلّ عليه إسناد القول إلى ضمير جماعة المنافقين. وبذلك فسر ابن عاشور قول الله تعالى: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كلمة الْكُفْرِ**﴾ يونس/74.

ونجد ابن عاشور يتفنّن في تفسير المفردة حيث وردت ويعطيها حقّها في الإظهار والبيان رابطًا تفسيره بسياق الآيات فمثلا لما وقفت على قول الله تعالى: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكلمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ يونس/64، وجدت أن ابن عاشور يفسر كلمات الله الواردة في الآية السابقة بالأقوال الّتي أوحى بها إلى الرّسول في الوعد المشار إليه، ويؤخذ من عموم كلمات الله (ابن عاشور، 1984 269/10).

ولمّا شرع ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى: ﴿**وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكلمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ يونس/82.

قال إنّ الكلمات مستعارةٌ لتعلّق قدرته تعالى بالإيجاد وهو التّعلّق المعبّر عنه بالتّكوين الجاري على وفق إرادته وعلى وفق علمه، وهي استعارةٌ رشيقةٌ؛ لأنّ ذلك التّعلّق يشبه الكلّام في أنّه ينشأ عنه إدراك معنًى ويدلّ على إرادة المتكلّم، وعلى

علمه، وكذلك فإنّ المراد بكلمات الله: أمر التّكوين، وجمعت الكلمات بالنّظر إلى أنّ متعلّقها ناسٌ كثيرون، فكلّ واحدٍ منهم تحقّ عليه كلمةٌ (ابن عاشور، 1984 257/11).

وتعقيبًا على هذا فإنّ كلماته في هذه الآية عند أبي حيان يعني بِآيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ فِي مُحَارَبَةِ ذَاتِ الشَّوْكَةِ وَبِمَا أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ (أبو حيّان الأندلسيّ، 1998 1396/3)، وأمّا الزّمخشريّ فيقول: يحق الحق بكلماته يعني يثبّته بوحيه وبقضائه (الزّمخشريّ، 1987 222/4).

يقول ابن عاشور وأما قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ يونس/ 96، فقد قرأ غير نافعٍ، وابن عامر (كلمت) ربّك على مراعاة الجنس إذ تحقّ على كلّ أمّةٍ كلمةٌ، وهذا الكلام عظةٌ للمشركين. (ابن عاشور، 1984 287/11).

ويرى الزّمخشريّ أنّ معنى حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كلمَةُ رَبّكَ أي ثبت عليهم قول الله الّذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غير ما كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ. (الزّمخشريّ، 1987 371/2).

وقد فسّر ابن عاشور رحمه الله تعالى الكملة في قول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ**﴾ هود/110، على أنّها إرادة الله الأزليّة وسنّته في خلقه، وهي أنّه وكلّ النّاسَ إلى إرشاد الرّسل للدّعوة إلى الله، وإلى النّظر في الآيات، ثمَّ إلى بذل الاجتهاد التّامّ في إصابة الحقّ، والسّعي إلى الاتّفاق ونبذ الخلاف بصرف الأفهام السّديدة إلى المعاني، وبالمراجعة فيما بينهم، والتّبصّر في الحقّ. (ابن عاشور، 1984 171/12)

وعند الزّمخشريّ كلمة هنا إنّما أراد بها كلمة الإنظار يعني الإمهال إلى يوم القيامة وقال هذه من جملة التسلية. (الزّمخشريّ، 1987 432/2).

وكذلك في قول الله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كلمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ هود/119، فالكلمة هنا بمعنى الكلام؛ فكلمة الله: تقديره وإرادته. أطلق عليها كلمة مجازًا؛ لأنّها سببٌ في صدور كلمة (كن) وهي أمر التّكوين، وجوّز ابن عاشور أَنْ تَكُونَ الكلمة كلّامًا خَاطَبَ الله تعالى بِهِ الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ النَّاسِ فَيَكُونُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ تَفْسِيرًا لِكلمَة (ابن عاشور، 1984 190/12) .

وكذلك فقد عقّب الزّمخشريّ على هذه الآية بقوله: ﴿**وَتَمَّتْ كلمَةُ رَبِّكَ**﴾ **أي قوله للملائكة:** ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل. (الزّمخشريّ، 1987 438/2).

وفي قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كلمة طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ**﴾ إبراهيم/24. فسّر ابن عاشور الكلمة الطَّيِّبَةُ على أنّها كلمة الْإِسْلَامِ، وَهِيَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ محمّدا رَسُولُ اللَّهِ وَالكلمة

الْخَبِيثَةُ: كلمة الشِّرْكِ، وَالطَّيِّبَةُ: النَّافِعَةُ. اسْتُعِيرَ الطَّيِّبُ لِلنَّفْعِ لِحُسْنِ وَقْعِهِ فِي النُّفُوسِ كَوَقْعِ الرَّوَائِحِ الذَّكِيَّةِ (ابن عاشور، 1984 224/13) .

وفي الكشّاف الكلمة الطّيّبة: كلمة التوحيد. وقيل: كلّ كلمة حسنة كالتّسبيحة والتّحميدة والاستغفار والتّوبة والدّعوة وكذلك ذكر المعنى الّذي أشار إليه ابن عاشور. (الزّمخشريّ 1987 226/3).

والأظهر أنّ المراد بالكلمة الطّيّبة القرآن وإرشاده، وبالكلمة الخبيثة تعالى أهل الشّرك وعقائدهم، فالكلمة في الموضعين مطلقةٌ على القول والكلام، كما دلّ عليه قوله: يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثّابت. والمقصود مع التّمثيل إظهار المقابلة بين الحالين. (ابن عاشور، 1984 225/13)

وكذلك أطلقت الكلمة على الكلام في موضع آخر وهو إطلاقٌ شائعٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿**كَلَّآ إِنَّهَا كلمة هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ المؤمنون/100.

ويتابع ابن عاشور تفسيره معاني الكلمة في القرآن العظيم ففي آية الكهف: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكلمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كلمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ الكهف/109. قال إن كلمات اللَّهِ هي مَا يدلّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ علمهِ مِمَّا يُوحِي إِلى رُسُلِهِ أَنْ يُبَلِّغُوهُ، فَكلّ مَعْلُومٍ يُمْكِنُ أَنْ يُخْبَرَ بِهِ. فَإِذَا أُخْبِرَ بِهِ صَارَ كلمة، وَلِذَلِكَ يُطْلَقُ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ كلمَاتٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنْهَا وَلَوْ شَاءَ لَأَخْبَرَ بِغَيْرِهِ، فَإِطْلَاقُ الْكلمَاتِ عَلَيْهَا مَجَازٌ بِعَلَاقَةِ الْمَآلِ.

وقد وقفت على نظير ذلك في القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كلماتُ اللَّهِ**﴾ لقمان/27.

أمّا التّكليم فهو مصدرُ الفعل كَلَّمَ يكلِّمُ كلامًا وتكليمًا، وقد ورد هذا المصدر في القرآن الكريم مرّةً واحدة بصيغة المفعول المطلق، في قوله تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ النّساء:/ 164.

ويُفهم من سياق هذه الآية أن هذا التّكليم كان على وجه الحقيقة، إذ جاءت ضمن سياق الحديث عن وحي الله إلى رسله، فدلّ ذلك على اختصاص موسى عليه السلام بخطابٍ مباشر من الله عزّ وجلّ دون واسطة.

ويُعرّف التكليم بأنّه تعليق الكلام بالمخاطَب، فهو أخصّ من مطلق الكلام؛ إذ كلّ تكليمٍ كلامٌ، ولكن ليس كلّ كلامٍ يُعدّ تكليمًا، لأن الخطاب لا يكون إلا إذا وُجّه القول إلى مخاطَبٍ بعينه. ومن هنا كان اختصاص موسى عليه السلام بالتكليم تشريفًا إلهيًا خاصًّا، قال تعالى: {وكلّم الله موسى تكليمًا}، فاستحق بذلك لقب كليم الله.

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية لا تندرج ضمن مادّة الدراسة الرئيسة، وإنما أُورِدت استئناسًا واستشهادًا؛ لما تمتاز به من ندرة لفظ "التكليم" في النصّ القرآني، وعدم وروده في السور الداخلة في نطاق البحث، مع أهميتها في توضيح دلالة هذا المصدر وارتباطه بخطاب الله المباشر لأنبيائه.

أهمّ النّتائج

جاءت هذه الدراسةُ في مادة «الكلمة» مُظهِرةً مبدأً دلاليًّا جامعًا لأصل الجذر (ك-ل-م): الأثر والقول فالكلام عند العرب إبانةٌ تُحدِثُ أثرًا في السامع كما يُحدِثُ الكَلْمُ أثرًا في الجسد، ومن هذا الالتقاء انطلقت قراءاتُ ابنِ عاشور لِلفظ «الكلمة» في مواضعها القرآنيّة (وقد وردت في المقطع المدروس نحو تِسعَ عشرة مرّة). واتّضح أن الانتقال من المعنى المعجمي إلى المعنى الاصطلاحيّ يجري تحت ضبطِ سياقٍ دقيق، تتولّاه صِيَغُ التعريف والإضافة والجمع والنعوت، وتُعين عليه أفعالٌ قرآنيةٌ مُحكمة مثل: تمّت، سبقت، حَقّت، يُحِقّ، يُثبّت وغيرها.

وتبيّن أن الدلالة تتشعّب –بحسب البنية التركيبية– إلى حقولٍ أربع بارزة: إذا أُضيفت «الكلمة، الكلمات» إلى اسم الجلالة أو الربّ انصرفت إلى الوحي والقرآن أو إلى الوعود والأحكام والسّنن الإلهية، وقد تُستعمل مجازًا لما يدلّ على التكوين ونفوذ الإرادة (كـ«يُحِقّ الله الحقَّ بكلماته»)، ويقوّي هذا الاتجاه اقترانُها بألفاظ التمام والسبق ونفي التبديل، وبصيغة الجمع «كلمات» الّتي تشي بالعهود الجارية. (2) إذا أُضيفت إلى جماعةٍ بشرية دلّت على الشّأن والسلطان والهوية الجمعية: «كلمةُ الّذين كفروا» شأنُهم وكيدُهم، و«كلمةُ الله» العلوُّ والظَّفَر، و«كلمةُ الكفر» جنسٌ يجمع كلَّ قولٍ مُكفِّر. (3) إذا جاءت نكرةً موصوفةً نحو «كلمةٍ طيّبةٍ/خبيثةٍ» كانت تمثيلاً تقعيديًّا لقيمٍ عقديّةٍ جامعة؛ فالطيّبة شعارُ التوحيد وما كان نافعًا، والخبيثةُ ضدُّه. (4) وفي أصل الوضع تبقى «الكلمة» لفظًا واحدًا وقد تُطلق على الكلام الجامع الموجز كما في «إنها كلمةٌ هو قائلُها»، وهو استعمال يفسّر تنقّلها بين المفرد والجملة باختلاف المقام.

وأظهر المنهجُ التّفسيريّ لابن عاشور أنّه يبتدئ بالمعنى اللّغويّ والاشتقاقيّ ثمَّ يقيّده بالسّياق القرآنيّ، ويستأنس بأقوال المفسّرين كأبي حيّان والزّمخشريّ حين تدعو الحاجة؛ فتنبني بهذا منظومةٌ يمكن التنبّؤ بها: فالإضافةُ إلى الله مع قرائن السبق/التمام/نفي التبديل تومئ إلى القضاء والقدر والوعود، والإضافةُ إلى الجماعات تُشير إلى السلطان والهويّة، والنكرةُ الموصوفة تُنشئ تقويماً تمثيليًّا، أمّا الجمعُ «كلمات» فيُغلِّب معنى السّنن والعهود والوحي الّذي لا ينفد. وبهذا تنتظم دلالات «الكلمة» في دوائرَ أربع: الوحي والبيان، القضاء والسّنن/ التكوين، الشّأن والهويّة العقديّة، والقول بوضعه العام؛ وكلُّ ذلك محكومٌ بالصيغ الصرفيّة والروابط التركيبيّة الّتي وجّهت التّفسير في المواضع المدروسة.

المصادروالمراجع

القرآن الكريم.

الأزهريّ، أبو منصور محمّد بن أحمد. (2001م). تهذيب اللّغة. ط1، بيروت: دار إحياء التّراث العربيّ.

أبو حيان الأندلسيّ، محمّد بن يوسف. (1420هـ/2000م). البحر المحيط في التّفسير. بيروت: دار الفكر.

ابن عاشور، محمّد الطّاهر. (1984م). التّحرير والتّنوير: تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد. تونس: الدّار التّونسية للنّشر.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا. (1969–1972م). معجم مقاييس اللّغة. ط2، القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبيّ (تصوير: بيروت، دار الجيل/دار الفكر).

ابن منظور، جمال الدّين محمّد بن مكرم. (1414هـ). لسان العرب. ط3، بيروت: دار صادر.

الزّبيديّ، محمّد مرتضى الحسينيّ. (1965–2001م). تاج العروس من جواهر القاموس. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (طبعات وصور متعدّدة).

الزّمخشريّ، محمود بن عمر. (1407هـ/1987م). الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط3، بيروت: دار الكتاب العربيّ.

الشّريف المرتضى، علي بن الحسين. (1954م). أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة (عيسى البابي الحلبيّ وشركاه).

الفيّومي، أحمد بن محمّد بن عليّ. (1994م). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو هلال العسكريّ، الحسن بن عبد الله. (1426هـ). معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكريّ وجزء من كتاب السيد نور الدين الجزائريّ. مؤسسة النشر الإسلاميّ.

الزّجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ. (2004م). معاني القرآن وإعرابه. شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي. القاهرة: دار الحديث.

الطّبريّ، محمّد بن جرير. (1403هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. بيروت: دار المعرفة.

القرطبيّ، محمّد بن أحمد الأنصاريّ. (د.ت). الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الشعب.

الطبرسي، أبو الفضل بن الحسن. (1425هـ). مجمع البيان لعلوم القرآن. ط7، قم: مطبعة أمير.

الشوكاني، محمّد بن عليّ. (1994م). فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. بيروت: دار الكتب العلمية.

الطباطبائي، محمّد حسين. (1423هـ). الميزان في تفسير القرآن. ط7، قم: مؤسسة النشر الإسلاميّ.

ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله. (د.ت). شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: دار التراث.

ابن هشام الأنصاريّ، محمّد بن عبد الله. (2001م). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. خرج آياته وعلّق عليه: علي عاشور الجنوبي. بيروت: دار إحياء التراث العربيّ.

حسن، عباس. (د.ت). النحو الوافي. مصر: دار المعارف.